صوت الهجرة

للسيدة وداد سكاكيني

ما كانت الهجرة إلا مركب الأسنة الذي يضطر إليه أحرار الفكر والرأي ، أو اللهيف المتشوق إلى آفاق جديدة للرزق والمعرفة ، فإن الوطن عزيز لدى أهليه وساكنيه ، إذ يعيش المرء فيه كما تعيش الشجر في منابتها ، فمنذا الذي فارق بلده وذويه ولم يؤله البعاد والنزوح طوعاً أو كرها ؟

لو عرفنا شعور الطير الذي يسمونه السنونو وقد كتب عليه في الحياة أن يترك عشه إلى أفق بعيد، يفرد فيه جناحيه، لأدركنا عمق الأسى والحنين ، في مغادرة المنزل المألوف والأرض المعهودة

أبداً نرى الذين جلوا عن بلادهم ومعاهدهم متلهفين عليها ، لاهجين بذكرها وآثارها . ولكم علق نظري بأسماء يونانية أو إيطالية كأثينا والأكروبول وفينيسيا وسواها ، سمعت بها بعض المتاجر والملاهي بمصر ، فقلت يالله ! أقام الروم طويلا بضفاف النيل ، وظلوا متعلقين بالوطن الأول . وفعل مثلهم أكثر المهاجرين من العرب إلى الديار الأمريكية والإفريقية ، فأنشأوا بيوتا وأسواقا على طراز ما عرفوا في بلادهم وحافظوا على لهجاتهم وتقاليدهم ، وقديما بقيت الأندلس على عربيتها شرقية أصيلة

هذه خواطر طوفت بخيالي وفكري وأنا أتصور هجرة الرسول محمد بن عبد الله ، وجعلتني أتساءل : ترى كيف كان شعور الرسول في تلك الليلة الخطيرة ، فإن السيرة لم تقل لنا كل شيء ، وما التحاور الذي كان بين محمد عليه السلام وبين صاحبه المحزون وهما يسريان في أناة وحذر ، والبيداء تطويهما نحو المدينة ؟ لقد بقي كثير من ذلك التحاور في ضمير الزمن ، ولم يستطع الفن ولا الأدب أن يكشف عنه حرمة وتهيبا

إن في معنى الهجرة بتلك الليلة الموصودة ما يتعايا دون تصويره القلم واللسان لأنه يحتوي فيما يحتوي فراق الأهل والبلد ، لا لاكتساب الرزق والعيش أو لالتماس السلوى في تبدل الوجوه والآفاق ، بل من أجل هدف أسمى وأغلى ، وفي سبيل إنسانية مثلى ، تجعل كل بلد يذكر فيه اسم الله ورسوله وطناً لمحمد ، فإن هذا الدين الحنيف لم يولد ليبقى بين الجبلين الأخشبين أو لتهفو إليه الأفئدة من صوب أبي قبيس فحسب ، وإنما أراد الله أن يعم العالم بالهدى والرحمة ، ويخرج به الناس من الظلمات إلى النور

فمن أجل هذه الرسالة الخالدة فارق محمد بلده مضطرا مقهورا ، حتى عاد إليه مؤيدا منصورا ، وفيه أعد الشعل الكبير الذي أمسك به أبو بكر ثم سلمه من بعده إلى عمر

لقد أقبل محمد بصاحبه الصديق على يثرب في لهفة وحسبان وإشفاق على من تركهم في مكة حيارى يحذرون كيد المتربصين وعنت الأعداء ، فتلقاه غطاريف الأوس والخزرج بالنصر والإيمان وراحوا يفدونه بالأرواح مخلصين ، ويستجيبون لدعوته مؤيدين

وكان من شأن أكثر الفاتحين أن يدمروا البلاد التي يأخذونها ، ولكن محمدا لم يهدم إلا الأصنام التي لكزها فانحدرت منكسة محطمة من أعلى الكعبة ، ولم يكن عجبا في الدهر أن تحارب المدينة مكة ، فقد حاربت اسبارطة أثينا ، وكلتاهما من موطن واحد ، وأشهدتنا الأيام القريبة حرب الجنوبيين في أمريكا للشماليين ، على أن حرب الرسول عليه السلام ما كانت إلا لتحقيق الرسالة الإلهية التي أداها إنقاذا للانسانية التي ضلت سبيلها ، وتاهت في جاهليتها متنكبة عن الخير والهدى ، ولم يكن جهاده طمعا في مآرب الدنيا والسيطرة على أهلها ، بل في سبيل كلمة أراد أن تحق في الدنيا وأن تكون هي العليا ، فإذا مرت هذه الذكرى بعد ترادف العصور بقيت خافقة بالحياة كأنها قد جرت البارحة ، وإلا فما قيمة التاريخ ، وما تعب الزمان في حفظ الأحداث ورواية الخطوب

إن كل تاريخ لا يروى لنا الذكرى ويبعثها حية خافقة في النفوس لهو في نظري تابوت ترقد فيه مومياء ، ولهذا لا ينبغي أن نمر بذكرى الهجرة مرور الحفاوة والتكريم كمن يفرح بعيد جميل قد مر بحياته أو بفرد من أفراد أهله ، وإنما ينبغي أن نحس في ذكرى الهجرة بمثل ما أحس المؤمنون والأنصار حين أقبل عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعه صاحبه يتخفقان من كيد المتمردين والحاقدين ، ويستأنسان بمن شد الأزر وفتح الصدر للرسالة التي جمعتهم على محبة وإيمان وعزم لم تزعزعه المحن والفتن ، ولا هدته الصدمات واللمات